نظرية التدافع...نحو محاولة لفهم وتفسير السلوك الانساني

أ.د/ خالد عبد الرازق النجار[1]

قال تعالى في سورة البقرة الآية 251: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ صدق الله العظيم...

نعم هنا كانت البداية لحالة من التأمل فى هذه الآية الكريمة والتى تبدأ بـ لولا دفع الله... لفسدت الارض .. وكأن هذا الدفع مشروط بحماية الارض من الفساد وحفظها، أي أن هذا الدفع للناس هو الحامي للأرض من الفساد ومن ثم فان التدافع بين الناس يجسد أسمى معاني الايجابية التي تسعي لحفظ الارض وحمايتها من الفساد والمفسدين.

التدافع... وثبة تأملية في بعد المعنى والتأصيل للبحث والتفكير نحو تحقيق واحد من أهم أهداف العلم، وهو الفهم والتفسير لتلك الصيرورة الدينامية المتحركة والمتجددة والتي يجسدها المعني الضمني والمباشر لكلمة التدافع، فتقاس بوحدة الزمن لكي نفهم أن تعاقب الليل والنهار هو تجسيد حي لأحد معاني التدافع، فالليل يدفع النهار بكل احداثه وكذلك النهار يدفع الليل بكل تفاصيله ومحتواه لكي تطوى الاحداث ويبدأ يوم جديد بأحداث جديدة وآمال جديدة وسعي جديد نحو تحقيق أهداف ربما لم يكن لها وجود بالامس وأصبح لها وجود اليوم، وتتوالى الأيام متعاقبة ومتدافعة لكي نقف أمام دورة زمنية جديدة متمثلة في الأسابيع والشهور والسنين والعقود والقرون، تصنع مظاهر الحياة وتصنع الأحداث وتصنع الحضارة وتصنع التاريخ كله بدءاً من الفرد وحتى الدول والحضارات بكلها.

كشف البحث عن المعنى في اللغة العربية يأنه يقوم على وحدة التشابة في المصدر وانطلاقا الى كم كبير من المشتقات التى تحقق معاني كثيرة ومتعددة، بينما المعنى في اللغة الانجليزية يقوم على الاختلاف في المعنى فنجد على سبيل المثال دفع تعنى Push – Pay – Defend – Repel – Prevent–checksوكلها معاني لايوجد بينها أي تشابه على الاطلاق وهو الأمر الذي يدفعنا الى أستنتاج مؤداه أن مفهوم التدافع بما يتضمنه من ثراء في المعنى والمضمون لا يمكن أن نجد ما يقابله عند البحث عنه في اللغة الانجليزية حتى أن مفهوم التدافع لا يوجد ما يوازيه في المعني في اللغة الانجليزية ولا توجد كلمة انجليزية تعبر عن ثراء هذا المعنى الذي جاء في اللغة العربية، وهو الامر الذي يجعلنا نستنتج أن هذا المعني للتدافع لم يرد جملة ولا تفصيلا في التراث العلمي الاجنبي في مجال العلوم الانسانية أو غيرها.

[1] أستاذ علم النفس –كلية التربية للطفولة المبكرة– جامعة القاهرة

فالتدافع هو الصيرورة التي توجه التفاعل بين القوى المتعددة بحيث يؤثر كل منهما في الاخر ويتأثر به سلباً أو ايجاباً وذلك بصورة مستمرة ومتتابعة تسهم في تحقيق التوازن بينها وتنتهي بظهور بعضها واختفاء البعض الاخر، فالتدافع يحقق التعادل بين قوى الخير فيما بينها وكذلك بين قوى الشر فيما بينها وتأخذ كل قوى محلها ومكانها تحقيقاً للتوازن في العلاقة بين المتضادات نحو التصادم والتصارع، حيث تنقضي بعض هذه القوى في عملية التدافع وتبرز قوى أخرى فتكون لها السبق والريادة والظهور والسيطرة انتظاراً لقوي أخرى تحل محلها وتلعب دورها وهكذا دواليك ليستمر التوازن قائما في فاعلية قدرة وسنة التدافع بين الناس لكي تستمر الحياة.

محددات التدافع:

التدافع الكوني: خلق الله الكون مدفوعاً في اتجاه واحد، فحركة الاجرام والكواكب لابد أن تسير بالضرورة في اتجاه واحد، فالكوكب في حركته دافع لغيره ومدفوع بغيره في توازن بديع لا يزيد ولا يقل وضمن منظومة كونية شديد الدقة والاتقان تؤدي بدورها الى تدافع الليل والنهار وتدافع الايام وتحقيقاً دوره الزمن.

التدافع ودورة الجهاز الهضمي: لعل من أهم محددات التدافع هو أن يكون التدافع في اتجاه واحد ومن أكثر العمليات التى تقوم على التدافع هي عملية الهضم

التدافع الاقتصادي: البورصة: أكبر ساحات التدافع الاقتصادي (هي سوق منظمة تقام في أماكن معينة وفي أوقات محددة يغلب أن تكون يومية بين المتعاملين بيعاً وشراء وبمختلف الأوراق المالية وبالمثليات التي تتعين مقاديرها بالكيل والوزن والعدد وذلك بموجب قوانين ونظم تحدد قواعدها المعاملات والشروط الواجب توافرها في المتعاملين والسلعة).

التدافع السياسي: حيث تقوم السياسات الدولية والاقليمية والداخلية على التدافع باعتباره المحرك في بناء المصالح أو الشراكات او التحالفات المشتركة.

التدافع المهني والنظام التعليمي: يرتبط النظام التعليمي في اي دولة بتحقيق أهداف محددة، فالتعليم ليس هدفًا في حد ذاته مالم يرتبط بتحقيق أهداف المجتمع وتلبية احتياجاته من توفير كوادر مهنية متخصصة في جميع التخصصات النظرية والعملية والفنية، وتقوم الجامعات من خلال جميع كلياتها بتخريج دفعات سنوية تلبي احتياجات المجتمع، وتتدخل كثير من العوامل المجتمعية في توجيه التَّدافُع نحو تخصصات معينة فنجد مسميات مثل كليات القمة والتى يسعى الطلاب وأولياء أمورهم بالحاق ابناءهم بهذه الكليات وكذلك الكليات العسكرية لما توفره من فرص عمل مضمونة، فضلاً عن العديد من العوامل الأخرى التى يمكن أن تلعب دورًا محوريا في توجيه التَّدافُع المهنى داخل المجتمعات.

التدافع التكنولوجي: فالتَّدافُع التكنولوجي قد وضع كبرى الشركات المنتجة للهواتف الذكية في حالة تنافس وتدافع وتحدي مستمر، حيث إنها أصبحت مدفوعة لإصدار هواتف ذكية بشكل دوري مطورة ومحدثة

ومجهزة بأحدث التطبيقات الالكترونية، ويكفي الإشارة في هذا السياق إلى تطبيق أوبر للسيارات، وهو مجرد تطبيق إلكتروني أصبح هو رأس مال الشركة المنظمة التى لا تملك سيارة فعلية واحدة، ولكنها تملك تطبيق يحقق ملايين الدولارات وأصبحت شركة دولية في معظم دول العالم.

التدافع الصناعي: ومجمل ما سبق أن كل خط انتاج لأي منتج صناعي هو تجسيد لمفهوم التَّدافُع الذي يسعي لتحقيق الخير والنماء والرخاء لأي مجتمع يساهم في سد احتياجاته وتصدير الفائض.

التدافع القانوني: ساحة القضاء واحدة من أهم ساحات تجسيد مفهوم التَّدافُع الحقيقي، فهي ساحة رد المظالم وساحة البحث عن تحقيق مفهوم العدالة بين ممثلي العدالة: ممثل النيابة والدفاع والقاضي، ساحة محكومة بعدد لا حصر له من القوانين التي تنظم العلاقة بين الناس، ساحة دفع الظلم ورد الظالم ونصرة المظلوم.

التدافع وعلاقته ببعض المفاهيم الاخرى:

- **التفاعل الاجتماعي:** هو العملية المتبادلة بين طرفين في موقف اجتماعي بحيث يكون سلوك اي منهما منبهاً او مثيراً لسلوك الطرف الاخر، أما التدافع فهو ما يمثل الهدف الذي يسعى اليه التفاعل الاجتماعي، حيث انه ليس هدفاً لذاته وانما يهدف الى تحقيق جملة التدافع بين الافراد والجماعات.
- **الصراع:** هو عملية اجتماعية تعبر عن نزاع او تطاحن بين الافراد أو الجماعات يتخلله شعور عدائي بين الاطراف المتصارعة أو المتنازعة مما يؤدي الي التخاصم أو العداء أو حتي الي القتال، أما التدافع حالة السعي نحو تحقيق الاهداف بغض النظر عن سعي الاخرين لتحقيق نفس الاهداف لأنها حالة ايجابية تسعى الى النماء والرخاء والبناء وتحقيق الاهداف لكل الاطراف.
- **التنافس:**عندما يتسابق الافراد أو تتسابق الجماعات أو المجتمعات للوصول الي هدف يرغب الكثيرون فيه وينتهي التسابق بفوز احد المتسابقين، نكون عندئذ بصدد موقف تنافسي، أما التدافع في حالة سعي مطلق نحو تحقيق الاهداف بغض النظر عن سعي الآخرين نحو تحقيق أهداف ولا يتطلب الموقف عداء أو إقصاء أو اعدوان أو تدمير للآخرين، كما أن التدافع لا ينصب ولا يركز على موقف وانما هو حالة عامة لتحقيق الاهداف والنجاح والانجاز والنماء والرخاء للفرد والمجتمع.
- **الدافعية:** الدافع: هو الطاقة الداخلية التي تدفع الكائن الحي لأن يسلك سلوكا معينا وفي وقت معين، فالكائن الحي يكون مدفوعا في سلوكه بقوة داخلية تجعله ينشط و يستمر في هذا النشاط حتى يتم إشباع هذا الدافع. أما التدافع لا ينفصل فيه العمليات الدافعة الداخلية عن العمليات الخارجية كما أنه قد يتم تأجيله أو دمجه أو ابداله أو توحده ضمن أهداف الجماعة أو المجتمع كما أنه مشروط بالإيجابية من حيث مقصده ومسعاه حيث انه لا يجب أن يكون مضاد لمعاير الجماعة أو مختلف عنها أو ضد معايير المجتمع أو مخالف لقوانينه عند إشباعه وتحقيقه فهو مشروط بالايجابية

والتوافق مع المعايير الخارجية للمجتمع ومشروط كذلك بالسعي نحو عدم تعارضه وتحقيق الاخرين لأهدافهم ومن ثم تنمية المجتمع وتحقيق الرخاء للجميع.

التدافع ...وعلاقته بفروع علم النفس

- التدافع وعلم نفس النمو:تعريف النمو: النمو سلسلة متتابعة متماسكة من تغيرات تهدف إلي غاية واحدة، هي اكتمال النضج ومدي استمراره وبدء انحداره، فالنمو بهذا المعني لا يحدث فجأة، ولا يحدث عشوائيا، بل يتطور بانتظام خطوة إثر خطوة ويسفر في تطوره هذا عن صفات عامة وخصائص يمكن من خلالها رسم ملامح كل مرحلة عمرية على حده، هذا الانتظام هو أحد قوانين التدافع السوي الذي يجب الجميع دون استثناء.
- التدافع وعلم النفس الاجتماعي: تشير التعريفات أن علم النفس الاجتماعي هو العلم الذي يدرس سلوك الأفراد كما يتشكل عن طريق المواقف والظروف الاجتماعية المختلفة. فاهتمام عالم النفس الاجتماعي ينصب علي فهم سلوك الفرد من حيث هو متأثر ومؤثر في المواقف والظروف الاجتماعية، في حين أن التدافع ليس مفهوماً قاصراً على دراسة سلوك الفرد في المواقف والظروف الاجتماعية وأنما يمتد ليصبح هو السياق الذي يشكل المواقف الاجتماعية وهو الهدف الأسمى لأهداف المواقف الاجتماعية وجملة السلوكيات الفردية او الجماعية الساعية نحو تحقيق أهدافها.
- التدافع والصحة النفسية: التوافق هو أحد أهداف عملية التدافع والتى تتجاوز حدود الفرد لوصف حالة كلية وشمولية ومجتمعية تربط الفرد بالجماعة والمجتمع وتدخله إلى مستويات التدافع الأكبر التى يتطليها الواقع والمجتمع وهنا علينا أن نصف التدافع بأنه نتاج كلي لعمليات التدافع النمائي السوي في أطار عمليات التنشئة الاجتماعية السوية التي تساهم في زيادة قدرة الفرد على التدافع بشكل سوي داخل حدود الأسرة (التدافع الاسري) وبالتالي زيادة قدرته على التدافع خارج نطاق الاسرة الى التدافع التعليمي والثقافي والديني والمجتمعي والمهني، فالحياة سلسلة لا تتوقف من التدافعات التي يكون لكل مجال منها أهدافها الخاصة بها ومتطلباتها الخاصة واحتياجاتها الخاصة من أجل تحقيق الاهداف التى تربط الفرد بالاسرة والجماعة والمجتمع والدولة والعالم كله.
- التدافع والحيل الدفاعية النفسية: Defense Mechanisms تعتبر حيل الدفاع النفسي أساليب غير مباشرة تحاول إحداث التوافق النفسي لدى الافراد وتهدف الى احتفاظ الفرد بقدرته على التدافع السوي، فهي دافع ضد الوقوع في دائرة المرض والاضطراب.
- التدافع وعلم النفس الصناعي: هو فرع من فروع علم النفس التطبيقي الذي يهدف إلى رفع الكفاية الإنتاجية للعاملين، وذلك عن طريق حل المشكلات التي تحدث في المجال الصناعي حلاً علمياً موضوعياً إنسانياً، كما يحرص على كرامة وتقدير واحترام العاملين مما يحقق لهم الراحة النفسية والصحية والتي تساهم في زيادة الانتاج كماً ونوعاً.فزيادة قدرة الفرد على التدافع الايجابي تعينه على زيادة قدرته على الانتاج والتوافق معاً.

آليات التدافع السوي:

- **التعايش: التعايش في مدلوله العام يعني أن يعيش البعض مع البعض الآخر ، وفي مفهومه الاصطلاحي المعاصر أن يكون هذا العيش المتبادل قائماً علي المسالمة ، وهذا ما يؤكده الوصف الذي غالبا ما يستعمل مرتبطاً به حين ينعت بالسلمي.**
- **التعاون: وتعدّ مهارة التعاون من أهم صور التفاعل الاجتماعي، يجمع بين الأفراد على الحب والألفة والمشاركة من أجل تحقيق أهداف مشتركة.**
- **التنافس: فالإنسان في بعض الأحيان يحتاج إلى التنافس الشريف الذي يفجر الطاقات ويطلق القدرات للعمل والإنتاج، والتنافس قد يحدث بين شخصين أو مجموعتين أو حتى بين دولتين وذلك من أجل الوصول إلى الهدف المنشود.**
- **الايثار: "ذلك السلوك الذي يتم بقصد فائدة الآخرين، كما أنه سلوك لا نخطط له، ولا يتم بناء علي طلب ولا ينتظر منه عائد في المستقبل أو مكافأة أو شكر وأبعاده هي"(التعاطف – المساعدة – الكرم –المشاركة).**
- **الحوار: "تفاعل لفظي وغير لفظي، بين اثنين أو أكثر، بهدف التواصل وتبدال الأفكار والمشاعر والخبرات"**
- **الاقناع: الإقناع هو عملية تغيير أو تعزيز المواقف، أو المعتقدات أو السلوك.**
- **التفاوض: التفاوض واحد من أهم آليات التدافع لحسم الخلافات وفض المنازعات بين الافراد او الجماعات او الدول ويسعي لتحويل مسار الخلاف والنزاع الة مسار التدافع السوي والطبيعي وتجنب اضطراب التدافع المتمثل في الصراعات والنزاعات المسلحة.**

اضطرابات التدافع الفردية والجماعية:

- **جميع انواع المخالفات والجرائم التي تنص عليها القوانين الوضعية أو تحرمها الأديان والعقوبات السالبة للحرية مثل: اضطرابات النمائية– الاضطرابات السلوكية– الامراض النفسية والعقلية– الاعاقات بقدر شدتها– الامراض الجسمية المزمنة– الادمان –الهجرة غير الشرعية.**
- **اضطرابات التدافع الجماعية– التعصب بأشكاله –الاغتصاب والتحرش– العنف– الثأر– الجريمة– الاحتكار– القتال أو الحرب.**

الخلاصة: إن محاولة البحث عن أدلة تعبر عن التَّدافُع فسنجد أنها تغطي كل مجالات الحياة بكل تفاصيلها الخاصة والعامة وفي مختلف نواحي الحياة، فما يحكم حركة القطارات هو التَّدافُع ووحدات التحكم ما هي سوى تنظيم لحركة تدافع القطارات وأن اي اضطراب في تنظيم حركة التَّدافُع هو ما يتسبب في وقوع الحوادث، كذلك الحال في قطاع المرور الخاص بالسيارات فقانون المرور في اي دولة هو تنظيم لحركة مرور السيارات ومساراتها وسرعتها واماكن توقفها أو انتظارها وتداولها من حيث الملكية، وحركة السيارات على الطرق هي تعبير عن شكل التَّدافُع فحينما تكون الكثافة المرورية كبيرة على أحد مسارات

الطرق قلت وانخفضت معدلات التدافع، اذ أن كثافة السيارات يبطئ كثيرًا من حركتها بينما حينما تقل كثافة السيارات تزداد سرعتها ويزداد تدافعها.

فَمَنْ مِنَّا مَنْ لا يدفع غيره ومَنْ مِنَّا مَنْ هو ليس مدفوع من غيره، وتتواصل التدافعات لكي تشكل جملة أشكال التفاعل التي تحكم الفرد في علاقته بنفسه "المدفوعة نحو تحقيق أهدافها" وبين الآخرين المدفوعين نحو تحقيق أهدافهم، لتكون المحصلة شبكة معقدة من التدافعات بين البشر وبعضهم، فينجح من ينجح ويخفق من يخفق وفق نسق التدافعات وشدتها والعوامل الميسرة لتحقيقها ... وهذا هو جوهر البحث في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد والسياسة.

ولعل هذا ما عبر عنه ليفى اشتراوس نفسه في كتابة "الأنثروبولوجية البنيوية" حين يقول: "إن المبدأ الأساسى هنا هو أن مفهوم البنية الاجتماعية لا يرتد إلى الواقع التجريبى، بل هو يرتبط بالنماذج التي نبنيها انطلاقا من هذا الواقع"، ولابد لكل "نموذج" – إذا أريد له أن يستحق بجدارة اسم "البنية" – من أن يتصف بسمات أربع: فهو لابد أولاً من أن يؤلف "نسقًا" أو "نظاما" من العناصر، يكون من شأن أى تغير "كائنا ما كان" يلحق بأحد عناصره أن يؤدى إلى حدوث تغير في العناصر الأخرى. وهو لابد – ثانيا – من أن يكون منتميا إلى "مجموعة" من التحولات، بحيث تتكون من مجموع تلك التحولات "أو التغيرات" " جماعة" من النماذج؛ وهو – ثالثا – لابد من أن يكون قادرا على التنبؤ بالتغيرات التي يمكن أن تطرأ على النموذج في حالة ما إذا تعدل عنصر من عناصره؛ ثم هو – رابعًا وأخيرًا– لابد من أن يكون هو الكفيل بتفسير الظواهر الملاحظة من خلال عمله أو قيامه بوظيفته.

فالتَّدافُع هو نظام من العلاقات الكامنة خلف بعض التغيرات..."، ولعل هذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول بأن كل علم من العلوم لابد من أن يكون "بنيويا": فإننا لو تساءلنا ما الذى يدرسه هذا العلم أو ذاك، لكان الجواب بلا شك أنه يدرس أنساق من العلاقات..." وحين يكون على العالم أن يختار هذه "البنية" أو تلك، كمنظور رياضي ممكن من أجل وصف بعض الموضوعات العينية، أعني من أجل تكوين وجهة نظر خاصة بصدد مجموعة من الموضوعات في العالم الواقعي، فإنه عندئذ يقوم بصياغة "نموذج" و"النموذج"" – بهذا المعنى – لا يوجد إلا في الأشياء نفسها. ولكن المهم أن هذا النموذج "يمثل منسقا من المعقولية"، يستطيع العالم – عن طريقه – إدراك أو فهم "العلاقات" بين الأشياء، وبالتالى صياغة الواقع في مجموعة من التراتيب" أو "التنظيم التدرجى" بين أنسقة المعقولية، وبالتالي فإنها تحول بيننا وبين الإلقاء بتلك الكثرة الهائلة من الوقائع التجريبية إلى ذلك العالم الضبابي المظلم عالم اللامنطق "" وإذن فإن تعريف البنية بوصفها "نسقا من المعقولية" لابد من أن يقودنا إلى فهم تلك "الخبرات المعاشة" التي يدرك البشر أنفسهم من خلالها، مع استبعاد كل تلك "الصور الواعية" المتغيرة التي يشكلها البشر عن تطورهم.